الحياة الطيّبة
السنة 28
العدد 58 - 59
صيف - خريف 2024م
أبحاث ودراسات

دور الوَحدة في تشييد الحضارة الإسلاميَّة الحديثة -قراءة في التجربة التاريخيَّة-

حسن محمَّد زين الدين[1]

مُستخلَص:

تمثِّل الحضارة الإسلاميَّة غايةً كبرى ضمن المشروع الإلهيّ للنبيّ الأكرم ﷺ في سبيل تحقيق السعادة البشريَّة الحقيقيَّة؛ وإذا أراد المسلمون اليوم السعي لتحقيق هذا الهدف فعليهم تحصيل أسبابه ومقدّماته، ومن هذه الأسباب الضروريَّة تحقيق الوحدة الإسلاميَّة واجتماع الكلمة بين المسلمين.

يؤكِّد الإمام الخامنئي دام ظله على هذين المفهومين «الوحدة» و«الحضارة»، ويشير إلى ارتباطهما بعضهما ببعض ضمن منظومته الفكريَّة، والمقصود في هذا البحث تبيين هذا الارتباط بينهما وإثباته.

من أجل التوصّل لهذا الغرض اعتمدت هذه المقالة منهج التحليل التاريخيّ لنموذجٍ من الحضارة الإسلاميَّة قد تحقّق فعلًا في القرون الأولى بعد البعثة النبويَّة، فيُبحث عن دور الوحدة الإسلاميَّة ضمن عوامل التأسيس والنهوض، وعن دور التفرقة ضمن عوامل الانهيار؛ ليُستنتج أنَّ الاتِّحاد والاجتماع قد كان ركنًا رئيسًا في بناء الحضارة الإسلاميَّة الأولى وحفظها.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من لبنان.

وبالتالي لا بدَّ من تحقيق الوحدة بين المسلمين فعلًا في طريق تشييد الحضارة الإسلاميَّة الحديثة المأمولة.

كلمات مفتاحيَّة:

الوحدة الإسلاميَّة، الحضارة، فلسفة التاريخ، المنظومة الفكريَّة.

مقدّمة:

ليس الكلام عن الحضارة الإسلاميَّة أمرًا مستحدثًا أو شأنًا سياسيًّا مبتدعًا أو فرضيَّةً دينيَّةً هامشيَّة، بل الحضارة الإسلاميَّة مشروعٌ إلهيٌّ مقدَّس كان انطلاقه ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ويصل إلى خاتمته وأوجه يوم يتحقّق وعد الله تعالى بأن يمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلَهم أئمةً ويجعلَهم الوارثين.

وفي طريق هذه الحضارة كانت بعثة الأنبياء والرسل وجهادهم وتبليغهم[2] إلى أن وصلت الأمانة إلى خاتَم النبيِّين الرسول الأكرم محمَّد بن عبد الله ﷺ.

وفي هذا السياق، احتلَّت قضيَّة الحضارة الإسلاميَّة ركنًا مهمًّا في المنظومة الفكريَّة للإمام الخامنئي دام ظله[3] الذي جعلها غايةً كبرى يجب العمل لتحقيقها بعد قيام الثورة والنظام والدولة والمجتمع الإسلاميّ الثوريّ[4]، بل لا يمكن أن يكون الهدف النهائيّ للنهضة الإسلاميَّة شيئًا أقلّ من تحقيق الحضارة الإسلاميَّة المتألِّقة[5].

ومن الكلمات المفتاحيَّة -أيضًا- في المنظومة الفكريَّة للإمام الخامنئي مفردة الوحدة الإسلاميَّة، ولا يخفى اهتمامُه -كما كان الإمام الخمينيّ قدس سره- بقضيَّة الوحدة وتأكيده على ضرورة السعي لترسيخها؛ للتوصّل إلى تحقيق مصالح إسلاميَّة كبرى؛ منها بناء الحضارة[6].

(1) سورة البقرة، الآية 30.
(2) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وسفراء الدول الإسلاميَّة، 14-1-1398هـ.ش.
(3) الخامنئي، عليّ: في لقاء شرائح الشعب، 11-5-1395هـ.ش؛ في لقاء مجلس شورى مركز النموذج الإسلاميّ الإيرانيّ المتطوّر، 6-2-1395هـ.ش؛ في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميّ، 8-10-1394هـ.ش؛ في لقاء العلماء والصحوة الإسلاميَّة العالميّ، 9-2-1392هـ.ش؛ في لقاء شباب محافظة خراسان الشماليَّة، 23-7-1391هـ.ش.
(4) الخامنئي، عليّ: في لقاء جمعٍ من طلاب الجامعات، 7-3-1397هـ.ش؛ في لقاء جمعٍ من أساتذة الحوزة العلميَّة في قم المقدَّسة وفضلائها وطلابها في المدرسة الفيضيَّة، 14-7-1379هـ.ش.
(5) الخامنئي، عليّ: في المؤتمر العالميّ للعلماء والنهضة الإسلاميَّة، 9-2-1392هـ.ش.
(6) الخامنئي، عليّ: في لقاء جمعٍ من الفاعلين العراقيِّين في المواكب، 27-6-1398هـ.ش.

يؤكِّد الإمام الخامنئي دام ظله أنَّ الوحدة الإسلاميَّة بأعلى مراتبها هي التي تساهم في تشييد الحضارة الإسلاميَّة الحديثة؛ إذ يقول صراحةً:

«الوحدة الإسلاميَّة على مراتب:

1. أدنى مراتبها: ألَّا تعتدي المجتمعات الإسلاميَّة والبلدان الإسلاميَّة والحكومات الإسلاميَّة والقوميَّات الإسلاميَّة والمذاهب الإسلاميَّة على بعضها، وألَّا تتعرّض لبعضها، وألَّا توجّه الضربات لبعضها، هذه هي الخطوة الأولى.
2. المرتبة الأعلى من ذلك هي -فضلًا عن عدم توجيه العالم الإسلاميّ الضربات لبعضه- أن يتعاضد هذا العالم الإسلاميّ مقابل العدوّ المشترك، ويتحلَّى بالاتِّحاد الواقعيّ والكافي ويدافع بعضه عن بعض، هذه مرتبة أعلى.
3. والأعلى من ذلك -أيضًا- أن تتآزر البلدان الشعوب الإسلاميَّة وتتكامل في ما بينها؛ إذ ليست البلدان الإسلاميَّة في مستوى واحدٍ من النواحي العلميَّة ومن حيث الثروة والأمن والقوّة السياسيَّة؛ لذلك يمكنها أن تتعاون وتتآزر، فيأخذ المتمكِّنون في أيِّ مجالٍ بأيدي من هم أدنى تمكّنًا منهم، هذه أيضًا مرحلة من مراحل الوحدة.
4. والمرحلة الأعلى -أيضًا- هي أن يتَّحد العالم الإسلاميّ كلّه للوصول إلى الحضارة الإسلاميَّة الحديثة وتحقيقها؛ هذا ما جعلته الجمهوريَّة الإسلاميَّة هدفها وغايتها القصوى: الوصول إلى الحضارة الإسلاميَّة، ولكن حضارة متناسبة مع هذا الزمن، الحضارة الإسلاميَّة الحديثة»[1].

ليس المقصود حصر فوائد الوحدة في بناء الحضارة، بل يمكن أن نذكر فوائد عدَّة -كما في عبارة القائد دام ظله- أيسرها صدُّ أعداء الدين، وإفشال مساعيهم، وحقن الدماء، وتحقيق الأمن والازدهار في المجتمعات الإسلاميَّة. لكن الهدف فعلًا في هذه المقالة هو تسليط الضوء على فائدةٍ

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميّة، 24-8-1398هـ.ش.

واحدةٍ من فوائد الوحدة الإسلاميَّة في ما يرتبط بالحضارة، وبعبارةٍ أخرى: تبيين هذا الارتباط في فكر الإمام الخامنئي دام ظله بين هذين المبدأين «الوحدة» و«الحضارة» سواء أكان هذا الارتباط على نحو العلِّيَّة أم الاقتضاء أم الإعداد.

فالمسألة المطروحة -هنا- هي بالدقَّة: «تبيين دور الوحدة الإسلاميَّة في تحقيق الحضارة الإسلاميَّة الحديثة».

منهج البحث:

إذا كان المدّعى هو أنَّ للوحدة دورًا في تشييد الحضارة الإسلاميَّة، فإنَّ يمكن التوسّل لإثباته بطرقٍ مختلفة، نذكرها على نحو التعداد؛ لنختار آخرها في هذا البحث:

1. التحليل النظريّ لخصائص الحضارة وشروطها؛ للتوصّل إلى دور وحدة الأمَّة في تأسيسها، خاصَّةً إذا قيل إنَّ وحدة الجماعة البشريَّة الواسعة مأخوذة في تعريف الحضارة.
2. التتبّع القرآنيّ؛ فقد نستفيد هذا الارتباط من مثل الآية المباركة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].
3. تتبّع الروايات التي تأمر بالتعايش مع سائر المسلمين وتنهى عن التفرقة، ومحاولة استنباط ملاك هذه الأحكام ومقاصدها.
4. تحليل سيرة أئمَّة أهل البيت عليهم السلام العمليَّة في تعاطيهم مع السلطة وعامَّة المسلمين، خاصَّةً مواقف أمير المؤمنين عليه السلام وسياسته.
5. البحث التاريخيّ والاستفادة من التّجارب الحضاريَّة السّابقة وتحليلها وتبيينها؛ وهذا هو الطريق المعتمد في هذا البحث.

(1) سورة الأنفال، الآية 46.

أوّلًا: المبادئ التصوُّريّة:

عندما يُقال إنَّ للوحدة الإسلامية دورًا في تحقيق الحضارة الإسلاميَّة الحديثة، وقبل أن يُصار إلى توضيح الارتباط بين الوحدة والحضارة، من الطبيعي أن يُطرح سؤالٌ عن المقصود من هذه المفاهيم: الحضارة، والحضارة الإسلاميَّة (أيْ المقيَّدة بهذا الوصف)، والوحدة الإسلاميَّة.

1. الحضارة:

الحضارةُ في أصل اللّغة هي المدينة أو ما يقابل البادية[1]. أمَّا في الاصطلاح، فلم تتّفق كلمة الباحثين على تعريف واحدٍ لها؛ إذ قصرها بعضُهم على المنجزات المادِّيَّة المحسوسة للأمّة، كالعمران والصّناعة[2]، فباينت الثقافة، ومال غيرهم في تعريفها إلى الجانب المعنويّ الثّقافيّ المتمثِّل بالعلوم والآداب والفنون[3]، بينما رآها آخرون مركَّبةً من الجانبين معًا[4].

والحديثُ بوجه أساس عن الحضارة في فكر الإمام الخامنئي دام ظله؛ فيمكن أن يُقال إنّها تقارب عنده المعنى الثّالث؛ إذ هي مجموع الجانبين المعنويّ والمادِّيّ[5] تربطهما علاقةٌ جدليَّةٌ من التأثير والتأثُّر؛ فالنّتاج الثّقافيّ والرّوحي عاملٌ رئيسٌ في النّهضة المادِّيَّة[6]، وللنموّ المادِّيّ دوره الحيوي في تعزيز الجانب المعنويّ والمحافظة عليه، بل يُعتبر الجانب المادِّيّ أداةً للتطوّر المعنويّ والثّقافيّ، أمَّا الأخير فهو الأصيل في الحضارة[7].

(1) ابن منظور، محمَّد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1414هـ.ق، ج4، ص197.
(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمَّد: تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، 1408هـ.ق، ج1، ص461.
(3) ديورانت، ول: قصَّة الحضارة، ترجمة: محمود، زكي، بيروت، دار الجيل، 1988م، ج1، ص3.
(4) ابن نبي، مالك: القضايا الكبرى، بيروت، دار الفكر المعاصر، 2000م، ج1، ص43.
(5) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميّ، 8-10-1394هـ.ش؛ في لقاء جمع من المثقفين، 18-2-1392هـ.ش؛ في لقاء شورى مركز النموذج الإسلاميّ الإيرانيّ المتطوّر، 14-12-1391هـ.ش؛ في لقاء جمع من الفاعلين العراقيِّين في المواكب، 27-6-1398هـ.ش.
(6) الخامنئي، عليّ: في لقاء أعضاء الّتعبئة، 29-8-1392هـ.ش.
(7) الخامنئي، عليّ: في لقاء شباب محافظة خراسان الشماليَّة، 23-7-1391هـ.ش

ويمكن صياغة تعريفٍ للحضارة المقصودة في هذا البحث بهذا النحو: «الحضارة مجموعةٌ منسجمة من العناصر المادِّيَّة والمعنويَّة التي تتحقَّق في جماعةٍ بشريَّةٍ واسعةٍ لتأمين سعادة أفرادها».

وبالتالي، تتحقّق الحضارة وتتجلّى عندما يزدهر العِمران، وتتطوّر العلوم والفنون، ويعمُّ الأمن والقانون، ويجري الناس على عاداتهم وتقاليدهم، يكون ذلك على أساس ثقافةٍ واحدةٍ تمثِّل روح هذه الحضارة؛ ولذلك يقال الحضارة المصريَّة والهنديَّة واليونانيَّة، ولا تُطلق الحضارة -مثلًا- على القبائل الجاهليَّة المتفرِّقة في شبه الجزيرة العربيَّة قبل الإسلام.

2. الحضارة الإسلاميَّة:

أمَّا الحضارة المقيَّدة بوصف الإسلاميَّة فهي كما يراها الإمام الخامنئي: مجموعُ المنجزات المادِّيَّة والنّتاجات الثّقافيَّة القائمة على أساس قيمِ الإسلام الأصيل ومرتكزاتِه[1]، بما يلائمُ ظروف العصرِ الحديث بخصائصه ومتطلّباته[2]. وبتعبير الإمام الخامنئي دام ظله: «تعني الحضارة الإسلاميَّة تلك البيئة التي يستطيع فيها الإنسان -باللحاظين المعنويّ والمادِّيّ- أن يرتقي ويصل إلى الغايات المطلوبة التي خلقه الله لأجلها»[3]

إذًا، المقصود من إسلاميَّة الحضارة هو أن تقوم على أساس الثقافة الإسلاميّة، أيْ الحضارة التي تقوم على أساس المعنويَّات والتعاليم والهداية الإلهيَّة[4]؛ فيكون روحها هو الإسلام بما يحمله من مضامين عقديَّة وفقهيَّة وخُلقيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة...

كما ينبغي التأكيد على مفهومَين آخرين يتفرَّعان عن مفهوم الحضارة الإسلاميَّة بلحاظٍ تاريخيٍّ، هما:

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميّ، 8-10-1394هـ.ش.
(2) الخامنئي، عليّ: في لقاء في جامعة الإمام الحسين للضباط، 31-3-1393هـ.ش.
(3) الخامنئي، عليّ: في لقاء رئيس مجلس خبراء القيادة وأعضائه، 14-6-1392هـ.ش.
(4) الخامنئي، عليّ: في لقاء قرّاء القرآن الكريم، 31-4-1391هـ.ش.

أ. الحضارة الإسلاميَّة الأولى: ويُقصد بها الحضارة التي شيّدها المسلمون الأوائل ابتداءً من بعثة النبيّ الأكرم ﷺ وحتَّى القرنين الخامس والسادس من الهجرة، أيْ ما يُعرف تاريخيًّا بالعصر الإسلاميّ الذهبيّ أو عصر النهضة الإسلاميَّة.

ب. الحضارة الإسلاميَّة الحديثة، كما يسمّيها الإمام الخامنئي دام ظله[1]، وهي والحضارة الإسلاميَّة المستقبليَّة التي ينبغي على المسلمين السعي لتشييد أركانها بما يتناسب مع الإسلام الأصيل ومتغيّرات الزمان والمكان[2].

3. الوحدة الإسلاميَّة:

مفهوم الوحدة بديهيٌّ عامٌّ، ومنه اشتقَّ الواحد (مبدأ العدد)، يمكن التعبير عنه -شرحًا للّفظ- بالانفراد[3] مقابل التعدّد والتركّب. أمّا الاتِّحاد المشتقّ من الوحدة، فقد ذكر أهل اللغة أنَّ اتِّحاد الشيئين صيرورتهما شيئًا واحدًا واتّحاد القوم اتّفاقهم، وهو مجاز[4].

وما نقصده من الوحدة الإسلاميَّة هو ائتلاف المسلمين، وتقاربهم، واتِّفاقهم، واجتماعهم على المبادئ المشتركة بينهم في سبيل تحقيق المصالح والأهداف المشتركة والمطلوبة، وإن احتفظت كلُّ طائفةٍ منهم بهويّةٍ خاصَّة تختلف فيها عن الآخرين[5]. فالوحدة -هنا- أقرب إلى معنى الاتِّحاد لغةً.

ثانيًا: المبادئ التصديقيَّة:

يقوم هذا البحث على أساس التسليم بمطلوبيَّة السعي لتأسيس

(1) الخامنئي، عليّ: بيان الخطوة الثانية، 22-11-1397هـ.ش.
(2) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميَّة، 24-8-1398هـ.ش.
(3) الصاحب، إسماعيل بن عبَّاد: المحيط في اللغة، بيروت، عالم الكتب، 1994م، ج5، ص181.
(4) الشرتوني، سعيد الخوري: أقرب الموارد في فصح العربيَّة والشوارد، طهران، دار الأسوة للطباعة والنشر، 1416هـ.ق، ج5، ص730.
(5) الخامنئي، عليّ: في لقاء مسؤولي النظام وسفراء الدول الإسلاميَّة، 2-2-1402هـ.ش.

الحضارة الإسلاميَّة الحديثة، باعتبارها الهدف الذي أراده الرسول الأكرم ﷺ في دعوته، وهذا ما يحثّ عليه الإمام الخامنئي دام ظله[1].

ثمّ إنَّه ينبغي التنبيه على أنَّ الاستفادة من التجارب التاريخيَّة وتحليلها في هذا البحث، هو بمعنى تعميم حكمٍ جرى على الحضارة الإسلاميَّة الأولى على أيِّ محاولةٍ لإنشاء حضارةٍ إسلاميةٍ حديثة؛ ولا شكَّ أنَّ هذا النحو من الاستدلال مبنيٌّ على أصلٍ موضوعٍ يُبحث في فلسفة التاريخ يمكن التعبير عنه بقانونيَّة التاريخ، ومفاده أنَّه يمكن استخراج قوانين كلِّيَّة من الأحداث التاريخيَّة الجزئيَّة؛ فالتاريخ قابلٌ للتعميم.

كذلك يُطلق على هذه القوانين عنوان السنن التاريخيَّة، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]؛ وقد بَحث هذا الأصل من العلماء المعاصرين الشهيد محمَّد باقر الصدر رحمه الله في كتابه «السنن التاريخيَّة في القرآن»[3] والإمام الخامنئي دام ظله[4]، وقد اعتمده الأخير -مع ملاحظة إلمامه الواسع بالتاريخ الإسلاميّ- في منظومته الفكريَّة خاصَّةً في ما يتعلَّق بالتنظير للحضارة الإسلاميَّة الحديثة[5].

1. الحضارة الإسلاميَّة الأولى:

إذا كان إثبات تأثُّر الوحدة الإسلاميَّة في تشييد أركان الحضارة الإسلاميَّة

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء شرائح الشعب، 11-5-1395هـ.ش؛ في لقاء مجلس شورى مركز النموذج الإسلاميّ الإيرانيّ المتطوّر، 6-2-1395هـ.ش؛ في لقاء مسؤولي النظام وضيوف مؤتمر الوحدة الإسلاميّ، 8-10-1394هـ.ش؛ في لقاء العلماء والصّحوة الإسلاميَّة العالميّ، 9-2-1392هـ.ش؛ في لقاء شباب محافظة خراسان الشماليَّة، 23-7-1391هـ.ش.

(2) سورة آل عمران، الآية 137.

(3) الصدر، محمَّد باقر: السنن التاريخيَّة في القرآن، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1409هـ.ق، ص45.

(4) الخامنئي، عليّ: في لقاء أهل قم المقدَّسة، 19-10-1394هـ.ش.

(5) انظر: صفري، عباس، «رابطه إيجاد تمدن نوين و تاريخ در انديشه آيت الله خامنه اى [العلاقة بين تأسيس الحضارة الحديثة والتاريخ في فكر آية الله خامنئي]»، فرهنگ پژوهش، 43، 1399هـ.ش، العدد 13، ص31-68.

الحديثة مبنيًّا على التتبُّع والتحليل التاريخيّ، فإنَّنا نجد في التاريخ الإسلامي تجربةً رائدةً للحضارة عبَّرنا عنها بالحضارة الإسلاميَّة الأولى؛ لذلك ينبغي أوَّلًا عرضُ هذه التجربة وبيان إسلاميّتها، حتَّى يُصار -ثانيًا- إلى الاستفادة منها في المقصود من هذا البحث.

لا ينكر مسلمٌ ولا كافرٌ ولا شرقيٌّ ولا غربيّ أنَّ القرن السادس الميلاديّ قد شهد تحوُّلًا تاريخيًّا كبيرًا، ففي العام 570 للميلاد تقريبًا كانت ولادة الرسول الأكرم ﷺ، وقد بُعث نبيًّا بعد أربعين عامًا فصدع بالرسالة ودعا إلى الدين الإسلاميّ في مجتمعٍ جاهليٍّ قَبَليٍّ مشتّت ليس فيه دولةٌ ولا قانونٌ ولا جيشٌ ولا اقتصادٌ ولا معاهدُ علميَّةٌ تُذكر.

وخلال عقودٍ قليلةٍ نهضت الأمَّة الإسلاميَّة من وسط الجزيرة العربية وسطع نجمها في العالم كلِّه، واستطاعت سريعًا تشييد حضارةٍ إنسانيةٍ كبرى خضعت لها سائر الأمم والحضارات، وقد استمرّت هذه الحضارة حتَّى القرن السادس للهجرة، وكان أوج تقدّمها وسطوع نجمها في القرن الرابع للهجرة، أيْ في القرن الحادي عشر الميلاديّ حيث كانت أوروبا في غاية الظلمة والجهل[1].

تحقّقت عناصر الحضارة عند المسلمين تحقُّقًا واضحًا، فكان لهم حكومةٌ وقانونٌ وشريعةٌ ونظامٌ قضائيٌّ دقيق، كما حصل ازدهارٌ اقتصاديٌّ وتحقَّقت الرفاهيّة إجمالًا، وقد طوّر المسلمون الصناعات والحرف والفنون، وشكَّلوا جيشًا قويًّا يحفظ الثغور، وتوسّع العِمران والبناء بهويَّةٍ إسلاميَّةٍ خاصّةٍ، وتجلَّت الثقافة الإسلاميَّة في المجتمعات؛ ببناء المساجد، وإقامة الصلوات جماعةً، ورفع الأذان في البقاع المختلفة، وأداء مناسك الحجّ، وارتداء النساء للحجاب، وغير ذلك.

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء جمعٍ من النخب العلميَّة، 19-7-1378هـ.ش.

ومن جملة المظاهر المهمّة للحضارة الإسلاميَّة الأولى حصول نهضة علميَّة كبرى في شتَّى العلوم الشرعيَّة وغير الشرعيَّة؛ كالفقه، والأصول، والكلام، والجغرافيا، والهيئة، والحساب، والكيمياء، والفيزياء، والفلسفة، والطبّ... فكانت الحضارة الإسلاميَّة في ذلك الوقت، ولقرونٍ من الزمن، العاصمة والمرجعيَّة العلميَّة للبشريَّة في الشرق والغرب[1]، وهذه حقيقةٌ تاريخيَّةٌ أقرَّ بها المستشرقون وعلماء التاريخ والاجتماع.

يقول المؤرِّخ الفرنسيّ غوستاف لوبون -مثلًا- في كتابه المعروف «حضارة العرب»:

«كلّما أمعنّا في درس حضارة العرب وكتبهم العلميَّة واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أنَّ العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأنَّ جامعات الغرب لم تعرف لها -مدَّة خمسة قرون- موردًا علميًّا سوى مؤلّفاتهم، وأنَّهم هم الذين مدّنُوا أوروبا مادَّةً وعقلًا وأخلاقًا، وأَن التاريخ لم يعرف أمَّةً أنتجت ما أنتجوه في وقتٍ قصير، وأنَّه لم يَفُقْهم قومٌ في الابتداع الفنيّ»[2].

كذلك يقول الإمام الخمينيّ ﵀: «المسلمون هم الذين غمر مجدُهم العالم، كانت حضارتهم فوق الحضارات، كانت معنويّاتهم أسمى المعنويّات، كان رجالهم أفضل الرجال، كانت بلادهم أوسع من كلّ البلاد، لقد امتدَّ حكمهم إلى العالم بأسره»[3].

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء أعضاء مجموعة العلم في إذاعة الجمهوريَّة الإسلاميَّة، 15-11-1370هـ.ش؛ في لقاء مسؤولي النظام، 21-11-1375هـ.ش.

(2) لوبون، غوستاف: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، مؤسَّسة هنداوي للتعليم والثّقافة، 2012م، ص30.

(3) الخميني، روح الله: صحيفة الإمام (الفارسيَّة)، طهران، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيّ ﵀ 1389هـ.ش، ج1، ص374.

2. أصالة الحضارة الإسلاميَّة الأولى:

على الرغم من اعتقادنا بأنَّ الحضارة الإسلاميَّة لا تصل إلى كمالها وتمامها -كما وعد الله الخلائق- إلَّا على يدَي الإمام المهدي الموعود (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)[1]، لكنّ هذا لا يعني أنَّ المسلمين لم يتوصّلوا أو لن يتوصَّلوا إلى بناء حضارةٍ ترفع الإسلام شعارًا وتحاول تطبيق أحكامه وقِيَمه وقوانينه بما يمكن؛ إذ الحضارة على مراتب، ونفي المرتبة الأعلى لا يستلزم نفي المراتب الأدنى؛ ولم تكن هذه الحضارة الإسلاميّة الأولى هي النموذج النهائيّ الذي أراده الإسلام ونبيُّه ﷺ لكنَّها تمثِّل جانبًا مهمًّا من المشروع الإلهيِّ المنسجم مع تعاليم الإسلام.

عمومًا قد يكون موقفنا نحن الشيعة من هذه الحضارة موقفًا حذرًا؛ فلا نشعر بالانتماء إلى هذه الحضارة أو بالفخر بمنجزاتها؛ والظاهر أن السبب في ذلك هو أنَّنا ننسب كلَّ ما حصل في هذه العصور -ولو في عقلنا الباطن- إلى الخلفاء والأمويّين والعبّاسيّين الغاصبين لحقوق آل البيت عليهم السلام، ونرى أنَّ الشيعة والأئمة عليهم السلام لم يكونوا شركاء في بناء هذه الحضارة.

لكن، ألا يمكن أن تكون تلك الحضارة -أو على الأقلّ جزء كبير منها- وذلك الازدهار العلميّ والاقتصاديّ والعِمراني والصناعيّ الذي عاشه المسلمون... امتدادًا للشريعة الإسلاميّة، ونتيجةً طبيعيَّةً لجهود رسول الله ﷺ والأئمَّة عليهم السلام في تبليغ الدّين والرسالة؟ بل ألا يمكن أن يكون للشيعة وأئمّتهم وعلمائهم دورٌ في بناء هذه الحضارة؟

لا ينبغي أن نعتبر كلَّ ما أنجزه المسلمون في تلك العصور مرفوضًا وخارجًا عن إطار الدين، بل الإسلام كان حيًّا حتَّى في ظلِّ أئمَّة الجور

(1) الخامنئي، عليّ: في لقاء جمع من أساتذة الحوزة العلميَّة في قم المقدَّسة وفضلائها وطلابها في المدرسة الفيضيَّة، 14-7-1379هـ.ش.

والحكّام الأمويِّين والعبَّاسيِّين، ويمكن أن يكون هو السبب الأساس وراء ذلك الازدهار.

المدّعى في المقام هو أصالة هذه الحضارة وإسلاميّتها، بمعنى أنَّها كانت قد أُسِّست على أساس الإسلام وحافظت -في الجملة- على هويّتها الإسلاميَّة لفترةٍ طويلةٍ من الزمن. وهناك قرائن كثيرة على إسلاميَّة هذه الحضارة، نذكرها اختصارًا:

أ. المؤسِّس الأوّل لهذه الحضارة هو النبيّ ﷺ نفسه؛ لأنَّ امتدادها كان متّصلًا بحياته دون انقطاع، فهو الذي شيَّد أركانها وأقام نظامها، بل في عهده توسّعت الدولة، وهو بنفسه الذي أعدَّ الجيش لمحاربة الروم.

في المقابل، لو فرضنا أنَّه قد كان للديانة المسيحيَّة حضارةٌ بهذا المعنى لكانت منفصلةً عن حياة المسيح عليه السلام بعقودٍ على الأقلّ، إذ لم تنتشر الديانة المسيحيَّة ولم تكن مؤثّرةً في الحكم والسلطة حتَّى زمان قسطنطين (337م) الذي اعترف بالمسيحيَّة واعتنقها وحكم على أساسها[1].

ب. من الطبيعيّ أن نربط بين انتشار العلم والمعرفة في الفقه والطبّ والفلك والحساب في تلك العصور بين المسلمين وبين حثِّ الإسلام وإصراره وتأكيده على طلب العلم والمعرفة من المهد إلى اللحد ولو في الصين، ولو بسفك المهج وخوض اللجج... وبتعبير الإمام الخامنئي لقد كانت الروح الدينيَّة داعمةً للنهضة العلميَّة في صدر الإسلام[2]، كما يصرِّح: «إنَّ الحضارة الإسلاميَّة قد وُجدت ببركة الحركة العلميَّة التي انطلقت منذ اليوم الأوَّل في الإسلام»[3].

ج. عندما نقول إنَّ الإسلام حسينيّ البقاء، وإنَّ الحسين عليه السلام قد انتصر في

(1) العبادي، مصطفى: الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، الإسكندريَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، 1999م، ص12.
(2) الخامنئي، عليّ: في لقاء أعضاء مجموعة العلم في إذاعة الجمهوريَّة الإسلاميَّة، 15-11-1370هـ.ش.
(3) الخامنئيّ، عليّ: في لقاء جمعٍ من النخب العلميَّة، 5-7-1398هـ.ش.

كربلاء وحفظ الدين بشهادته، وعندما نتكلَّم عن دور أئمَّة أهل البيت عليهم السلام وجهودهم في تربية العلماء والفقهاء ومواجهة البدع ومجادلة أهل الباطل؛ فهم أئمَّةٌ سواءً قاموا وتسلّموا مقاليد الحكم والقيادة أم قعدوا وأُقعدوا عن حقِّهم[1]؛ هذا يعني أنَّ الإسلام كان موجودًا حيًّا مؤثِّرًا حتَّى في ظلِّ حكم غاصبي الخلافة، وبالتالي لا معنى لادّعاء أنَّ ما فعله المسلمون كلّه في تلك الفترة لم يكن إسلاميًّا.

د. لقد تعاطى الأئمَّة عليهم السلام في تلك الفترة بحرصٍ شديدٍ على كيان الدولة الإسلاميَّة ومصالحها، ومن أمثلة ذلك ما يذكره العلماء عن موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الفتوحات الإسلاميَّة -خاصَّةً ضمن خلافة الخليفتين الأوَّل والثاني- حيث لم يرفضها مطلقًا، بل كان مساهمًا في المشورة والنصيحة[2]، بل شارك فيها بعضُ خاصَّةِ أصحابه، أمثال: سلمان، وحذيفة، وعمَّار، ومالك، والمقداد، وحجر بن عدي... ووصل الأمر إلى أن نقل بعضهم أنَّ الإمامين الحسنين عليهما السلام -أو الإمام الحسن عليه السلام خاصَّةً- قد شاركا في تلك الفتوحات بنفسيهما، كالطبري[3] والبلاذري[4]... ومن الشيعة المجلسيّ الأوَّل[5]في روضة المتَّقين والشيخ الأنصاري في كتاب المكاسب[6] وغيرهم.

هـ. لم تقتصر الحضارة على الخلافتين الأمويَّة والعبَّاسيَّة، بل كان الشيعة بأئمَّتهم وفقهائهم وعلمائهم وحكوماتهم -كالفاطميِّين والبويهيِّين والحمدانيِّين- جزءًا من هذه الحضارة.

(1) الحكيم، محمَّد باقر: الوحدة الإسلاميَّة من منظور الثقلين، قمّ المقدَّسة، المجمع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، 1425هـ.ق، ص137.
(2) المفيد، محمَّد بن محمَّد: الاختصاص، بيروت، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، 1430هـ.ق، ص172.
(3) الطبري، محمَّد بن جرير: تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار المعارف، 1387هـ.ش، ج4، ص269.
(4) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1988م، ص326.
(5) المجلسي، محمَّد تقي: روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه، قم المقدَّسة، بنياد فرهنگ اسلامى كوشانپور، 1406هـ.ق، ج3، ص156.
(6) الأنصاري، مرتضى: المكاسب المحرَّمة، قمّ المقدَّسة، مجمع الفكر الإسلاميّ، 1440هـ.ق، ج2، ص245.

قد يُقال إنَّه حتَّى مع التسليم بمجموع هذه القرائن التي تقتضي إسلاميَّة الحضارة الأولى، لا يمكن إغفال الموانع الكثيرة والانحرافات الكبيرة وعمليَّات التخريب التي طالت الإسلام على إثر وفاة الرسول الأكرم ﷺ خلال تلك القرون، فكيف ينسجم ذلك مع دعوى الإسلاميَّة؟

فيقال في الجواب: إنَّه على الرغم من ذلك يمكن تفسير استمرار الحضارة بالتطوّر بتشبيهٍ فيزيائيّ، حيث إنّك إذا رميت كرةً إلى الأعلى فإنَّها تظلُّ ترتفع رغم الجاذبيَّة التي تشدُّها إلى الأسفل؛ وذلك بسبب الطّاقة الحركيَّة التي اندفعت بها، وتظلُّ ترتفع حتَّى تصل إلى نقطةٍ تصبح فيها الجاذبيَّة أقوى من الطّاقة فتسقط[1]. وهذا الذي حصل في هذه الحضارة التي انطلقت بطاقةٍ إلهيَّةٍ على يد الرسول الأكرم ﷺ وبقي أثر هذه الطّاقة حتى تخلّى المسلمون تدريجيًّا عن دينهم ومبادئهم فسقطت الحضارة، والمأمول -إن شاء الله- أن تُبعث مجدَّدًا وتصل إلى قمَّة المجد والعظمة. بل نستطيع أن نقول إنَّ كلَّ شرٍّ أو نقصٍ أو ظلم كان موجودًا في تلك العصور -وبسببه كان انهيار تلك الحضارة لاحقًا- يرجع إلى الابتعاد عن الدين الحنيف وظلم الحكّام وسلبهم حقَّ آل محمّد عليهم السلام وتسليم الخلافة لغير أهلها، وفي المقابل يمكننا أن ننسب كلَّ خيرٍ عاشه المسلمون في العالم الإسلاميّ خلال قرونٍ متماديةٍ إلى الدّين الإسلاميّ والرسول الأكرم ﷺ وجهود أهل البيت عليهم السلام.

ينبغي التأكيد مجدَّدًا على أنَّ القول بإسلاميَّة الحضارة الأولى لا يعني تبرئة ساحة الحكَّام المغتصبين للخلافة الإسلاميَّة ولحقوق أهل البيت عليهم السلام بل المتآمرين على الإسلام نفسه -وهم أهلٌ للتُّهمة وسوء الظنّ- ولا نقبل أنَّ كلَّ قرارٍ وفعلٍ في تلك الفترة كان صحيحًا وشرعيًّا وممضيًّا من الأئمَّة عليهم السلام، لكن يمكن أن يكون هؤلاء -في بعض أفعالهم التي كانت

(1) انظر: الموسويّ، صادق عباس، «أزمات أمَّة، دراسة في انهيار الحضارة الإسلاميَّة»، المنهاج، العدد 10، 1426هـ.ق، ص203.

في صالح الحضارة الإسلاميَّة- مصداقًا لما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ: «**إنَّ اَللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصُرُ هَذَا اَلدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ**»[1].

إنَّه لمن الإجحاف بأنفسنا وبالدين الإسلاميّ ألَّا ننسب خيرات تلك الحضارة وبركاتها للإسلام وأن نقصي أنفسنا بوصفنا شيعة عن تلك المنجزات الضخمة. ولعلَّ في هذا الرفض والنأي بالنفس خدمةً لأعداء التشيّع ومجاراةً لهم في محاولاتهم تهميش الدور الشيعيّ.

بل لقد كان من دأب علمائنا أن لا يتركوا فرصةً لإثبات دور الشيعة في هذه النهضة والحضارة العلميَّة إلَّا واستغلّوها، إذ نعلم أنَّ كتبًا عدَّة مهمَّة في التراث الشيعيّ قد صُنِّفت بهدف الردّ على من اتّهم الشيعة بأنَّهم طائفة صغيرة لم تترك أثرًا يُذكر، أيْ لم يكن لهم مساهمة في البناء العلميّ والحضاريّ الإسلاميّ، من هذه الكتب كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» للآقا بزرگ الطهراني و«تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» للسيِّد حسن الصدر[2]، وكتاب «المبسوط في فقه الإماميَّة» للشيخ الطوسيّ[3].

ولهذا كلِّه يمدح الشهيد مطّهري في كتابه «الملحمة الحسينيَّة» تلك الحضارة الإسلاميَّة العظيمة التي استمرَّت لخمسة أو ستَّة قرون (العصور الذهبيَّة)، ويرى أنَّها من أهمّ الحضارات الثلاث أو الأربع في التاريخ، كما يؤكِّد على أصالة هذه الحضارة، أيْ إسلاميّتها[4].

كذلك عندما يتكلّم الإمام الخمينيّ عن هذه الحضارة والنهضة الكبيرة

(1) الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب: الكافي، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، 1363هـ.ش، ج5، ص19.

(2) أُلِّف هذان الكتابان ردًّا على عدم إنصاف جرجي زيدان للشيعة في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربيَّة»، انظر: آقا بزرگ الطهراني، محمَّد محسن: مقدّمة كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة، سامراء، مركز تراث سامراء، 1438هـ.ق، ص28.

(3) يذكر الشيخ الطوسيّ ﷺ في مقدّمة كتابه المبسوط أنَّ ما دفعه لتدوين هذا الكتاب هو ما كان يسمعه من المخالفين من استحقارٍ لفقه أصحابنا الإماميَّة واستنزارهم له ونسبتهم إلى قلّة الفروع وقلّة المسائل... انظر: الطوسيّ، محمَّد بن الحسن: المبسوط في فقه الإماميَّة، طهران، المكتبة المرتضويَّة، 1387هـ.ش، ج1، ص1.

(4) مطهري، مرتضى: الملحمة الحسينيَّة، بيروت، دار المرتضى، 1430هـ.ق، ص366.

والسريعة التي حصلت في صدر الإسلام، فإنَّه يذكر ضمن عوامل تأسيسها الإيمان وروحية الشهادة وأمثال هذه القيم الإسلاميَّة[1]، ويرى الإمام الخامنئي دام ظله أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله استطاع أن يشيِّد حضارةً عظيمةً تاريخيَّةً في صدر الإسلام استمرّت لقرونٍ عدَّة على الرغم من تفاوت القوى الظاهريَّة بين المسلمين وغيرهم، فلماذا لا نستطيع أن نشيِّد حضارةً إسلاميَّةً حديثة[2]؟!

على كلٍّ حال فلتكن هذه الحضارة الأولى أنموذجًا ومثالًا للحضارة الإسلاميَّة الحديثة المأمول تحقيقها والتي ينبغي أن نتحرَّك نحوها.

1. دور الوحدة في الحضارة الإسلاميَّة الأولى:

نبحث الآن عن دور الوحدة وأهمّيَّتها في تشييد تلك الحضارة الإسلاميَّة الأولى وحفظها؛ ويظهر ذلك بالتتبّع في مقامين: أثر الوحدة ضمن عوامل التأسيس، وأثر انعدامها ضمن عوامل الانحطاط والانهيار.

أ. الوحدة ضمن عوامل تشييد الحضارة الأولى:

لا شكَّ أنَّ العوامل المساهمة في تشييد تلك الحضارة الإسلاميَّة الأولى متعدّدة ومتداخلة، كما قد يكون بعضها في طول الآخر، وقد يكون بعضها أهمَّ من بعض، لكن السؤال المهمّ في بحثنا هو: هل كان للوحدة الإسلاميَّة دورٌ في تشكيل هذه الحضارة الإسلاميَّة الأولى؟

وللجواب عن هذا السؤال علينا أن نتحرّى الخطوات الأساس التي قام بها مؤسِّسها في صدد البناء والتشييد. وإذا كان المؤسِّس الأوّل لهذه الحضارة هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وإذا كانت هذه الحضارة قد انطلقت من رحم الدين الإسلاميّ، فإنَّنا ننقل الكلام إلى بيان محوريَّة الوحدة الإسلاميَّة في الثقافة والمصادر الإسلاميَّة وفي خطوات الرسول صلى الله عليه وآله في تلك الفترة التأسيسيَّة؛

(1) الخمينيّ، صحيفة الإمام (الفارسيَّة)، م.س، ج9، ص408.
(2) الخامنئي، عليّ: في لقاء جمعٍ من العلماء المسلمين الأفارقة، 3-12-1368هـ.ش.

لنثبت أنَّ أحد أركان تشييد هذه الحضارة كان الوحدة بين المسلمين، وفي سبيل تأسيسها وإقامتها كان تأكيد الإسلام والنبيّ الأكرم ﷺ على مبدأ الوحدة الإسلاميَّة والأخوّة الدينيَّة، وقد تجلّى ذلك في الكتاب وفي السنّة النبويَّة قولاً وفعلاً:

- **الوحدة الإسلاميَّة في القرآن:**

يوجِّه الله سبحانه وتعالى خطابًا صريحًا للمكلّفين يأمرهم فيه بالاعتصام بحبله والتمسّك بصراطه المستقيم، لكنّ الاعتصام الذي أُمروا به ليس مطلقًا بأيِّ نحوٍ شاءه المكلَّفون، بل هو اعتصام الجماعة لا الفرادى.

بل نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عن التفرقة وتضييع نعمةٍ كبيرة من النعم الإلهيَّة؛ حيث ذكَّرهم بتلك المنّة الكبيرة التي شعروا بها ولمسوا بركاتها في السنوات الأولى من البعثة، وهي تأليف قلوبهم وجعلهم إخوانًا، وبعبارةٍ أخرى هي نعمة الوحدة الإسلاميَّة.

وتأتي هذه الألفة والأخوّة والوحدة في سياق إنقاذ المسلمين من نار جهنَّم لكفرهم أو نار الدنيا لتفرّقهم في مجتمع الجاهليَّة الفاسد[1]، فكأنّهم ما كانوا ليهتدوا وينجوا لولا سلوكهم سبيل الأخوّة والوحدة؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[2].

وإذ يعدُّ القرآن تأليف قلوب المسلمين في صدر الإسلام منّةً إلهيةً، فإنَّها من سنخ المدد الغيبيّ والتأييد الإلهيّ والنصر الربّانيّ؛ وشاهده ما كانوا عليه في الجاهليَّة قبل الإسلام من تفرُّقٍ وتشتُّتٍ وعداوةٍ، بحيث كان

(1) الطباطبائيّ، محمَّد حسين: الميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، 1393هـ.ش، ج3، ص368.

(2) سورة آل عمران، الآية 103.

من المستحيل اجتماعيًّا أن يتحقَّق هذا التآلف بالوسائل المادِّيَّة في هذه المدَّة القصيرة[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[2].

والمؤمنون بنصِّ القرآن الكريم إخوة، وقد أمر الله تعالى بالإصلاح بينهم؛ على أنَّ هذا الأمر بالإصلاح لا يقتصر على البعد الفرديّ وتحقيق الاستقرار في العلاقات الخاصّة، بل يتعدّى ذلك إلى ما يريده الله تعالى من رأبٍ للتصدُّعات التي يمكن أن تطرأ على تلك الجماعة الواحدة؛ فالإصلاح بين أفرادها من المؤمنين هو تمكينٌ لوحدتها وجبرانٌ لما قد يمسُّ بها[3]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[4].

ثمَّ إنَّ الله تعالى يصف هؤلاء المؤمنين الذين ألّف بين قلوبهم والذين اجتمعوا مع رسول الله ﷺ بأنّهم أمّةٌ واحدة لا أممٌ متعدِّدة، فلا معنى لتعدّد الأمم الإسلاميَّة تدّعي كلٌّ منها انتسابها إلى الإسلام وإلى النبيّ الأكرم ﷺ، بل إنَّ تلك الأمّة التي وصفها القرآن بأنّها خيرُ أمّةٍ أخرجت للناس هي أمّةٌ واحدةٌ لها نبيٌّ واحدٌ ودينٌ واحدٌ وربٌّ واحدٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[6].

ومن أجل حفظ هذه الأمّة الواحدة، ينهى الشارع المسلمين عن التفرّق والتنازع؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا

(1) الحكيم، الوحدة الإسلاميَّة من منظور الثقلين، م.س، ص87.
(2) سورة الأنفال، الآيتان 62-63.
(3) سيأتي ما يناسب هذا المعنى في الأحاديث النبويَّة.
(4) سورة الحجرات، الآية 10.
(5) سورة الأنبياء، الآية 92.
(6) سورة المؤمنون، الآية 52.

جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]. ويصرِّح في سورة الأنفال بحكمة هذا النهي والمحذور المترتّب على التفرّق والتنازع، وهو الفشل والخذلان وذهاب الريح، أيْ الصولة والقوّة والنصرة والدولة[2]؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

ومن المناسب تتميمًا للاستدلال الإشارة -اختصارًا- إلى أنَّ المقصود من المؤمن في لسان القرآن الكريم هو من يعتقد بالشهادتين، وإن كان في لسان روايات الأئمَّة عليهم السلام والاصطلاح المتأخِّر بمعنى أخصّ وهو الشيعيّ الاثنا عشريّ؛ يقول السيّد الخوئي رحمه الله في مسألة الحكم بإسلام من أظهر الشهادتين في العروة الوثقى:

«الإيمان في لسان الكتاب المجيد هو الاعتقاد القلبيّ والعرفان والإيقان بالتوحيد والنبوّة والمعاد، ولا يكفي في تحقّقه مجرّد الإظهار باللِّسان [...] وأمَّا الإيمان في لسان الأئمَّة عليهم السلام ورواياتهم فهو أخصُّ من الإيمان بمصطلح الكتاب وهو ظاهر.

[...] فتلخّص أن الإسلام لا يعتبر فيه سوى إظهار الشهادتين، ولا بأس بتسميته بالإيمان بالمعنى الأعّم، وتسمية الإيمان في لسان الكتاب بالإيمان بالمعنى الأخصّ، وتسمية الإيمان في لسان الأخبار بالإيمان أخصّ الخاصّ»[4].

- **الوحدة الإسلاميَّة في الأحاديث النبويَّة:**

لمـَّا كان الخطاب النبويّ مقتبسًا من القرآن الكريم وكان كلاهما وحيًا

(1) سورة آل عمران، الآية 105.
(2) الطريحي، فخر الدين بن محمَّد: مجمع البحرين، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، 1364هـ.ش، ج2، ص353.
(3) سورة الأنفال، الآية 46.
(4) الخوئيّ، أبو القاسم: التنقيح في شرح العروة الوثقى، قمّ المقدَّسة، دار الهادي، 1410هـ.ق، ج4، ص231، 233.

إلهيًّا، كان تحقيق الوحدة بين المسلمين والمحافظة عليها مورد تأكيد الرسول الأكرم ﷺ خلال سنوات تأسيس الدولة والحضارة الإسلاميَّة. ويمكن تصنيف الأحاديث النبويَّة المرتبطة بالوحدة الإسلامية ضمن عناوين ثلاثة: أخوّة الإيمان، إصلاح ذات البين، ولزوم الجماعة.

أكَّد رسول الله ﷺ -بتبع القرآن الكريم- على أخوّة المؤمنين والمسلمين والحقوق المتبادلة في ما بينهم، وهذه الأخوّة هي الميثاق الذي يشدُّ أواصر المجتمع الإسلاميّ ويحقّق الوحدة المطلوبة؛ فقد ورد عنه ﷺ: «**اَلْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا**»[5]، و«**اَلْمُؤْمِنُ أَخُو اَلْمُؤْمِنِ عَيْنُهُ وَدَلِيلُهُ**»[6].

كما حثَّ ﷺ على المبادرة إلى إصلاح أيِّ صدعٍ في هذا البنيان وتقوية رابط الأخوّة بين المسلمين؛ فعنه ﷺ: «**إِصْلاَحُ ذَاتِ اَلْبَيْنِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ اَلنُّبُوَّةِ**»[7]، و«**إِصْلاَحُ ذَاتِ اَلْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ اَلصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ**»[8]، وورد أنَّه قال: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِصَدَقَةٍ يَسِيرَةٍ يُحِبُّهَا اَللَّهُ**» فقالوا ما هي؟ قال: «**إِصْلاَحُ ذَاتِ اَلْبَيْنِ إِذَا تَقَاطَعُوا**»[9].

وينبغي التأكيد في المقام على ما ذكرناه في آية ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ من أنَّ هذا الإصلاح لا يقتصر على البعد الفرديّ بل إنَّه يصبُّ في سبيل تحقيق الوحدة المجتمعيَّة الإسلاميَّة[10].

(5) الشعيري، محمَّد بن محمَّد: جامع الأخبار، لا م، المطبعة الحيدريَّة، لا ت، ص85.
(6) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، ص167.
(7) ابن أبي جمهور، محمَّد بن زين الدين: عوالي اللئالي العزيزيَّة في الأحاديث الدينيَّة، قم المقدَّسة، مؤسَّسة الشهداء، 1403هـ.ق، ج1، ص266.
(8) الطوسيّ، محمَّد بن الحسن: أمالي الطوسيّ، قمّ المقدَّسة، دار الثقافة، 1414هـ.ق، ص522.
(9) ابن أبي جمهور، عوالي اللئالي العزيزيَّة في الأحاديث الدينيَّة، م.س، ج1، ص266.
(10) لهذا نجد أمير المؤمنين ﷺ يرى مساوقة بين تفريق الجماعة وإفساد ذات البين، حيث يخاطب القوم بعد معركة الجمل إلى أن يقول: «فَـ«اتَّقُوا اَللَّهَ» أَيُّهَا اَلنَّاسُ «حَقَّ تُقَاتِهِ» وَاسْتَشْعِرُوا خَوْفَ اَللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وَأَخْلِصُوا اَلْيَقِينَ وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبِيحِ مَا اسْتَفَزَّكُمُ اَلشَّيْطَانُ مِنْ قِتَالِ وَلِيِّ اَلْأَمْرِ وَأَهْلِ اَلْعِلْمِ بَعْدَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَا تَعَاوَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَفْرِيقِ اَلْجَمَاعَةِ وَتَشَتُّتِ اَلْأَمْرِ وَفَسَادِ صَلاَحِ ذَاتِ اَلْبَيْنِ إِنَّ اَللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ «يَقْبَلُ اَلتَّوْبَةَ»... «وَيَعْفُواْ عَنِ اَلسَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» (انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج8، ص256).

وممَّا ورد عنه ﷺ التأكيد على لزوم الجماعة والمحافظة على الوحدة وعدم التفرّق والتشتّت؛ فإنّ المسلمين إخوةٌ يجمعهم الإيمان بالله ورسوله، ولن يستطيعوا مواجهة عدوِّهم إن لم يكونوا يدًا واحدةً؛ نقل الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى ابن أبي يعفور عن الصادق عليه السلام قال: «**خطب رسول الله ﷺ في الحجّة الوداع بمنى في مسجد الخيف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: نَضَّرَ[1] اَللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ[2] عَلَيْهِنَّ قَلْبُ اِمْرِءٍ مُسْلِمٍ: إِخْلاَصُ اَلْعَمَلِ لِلَّهِ، وَاَلنَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ اَلْمُسْلِمِينَ، وَاَللُّزُومُ لِجَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيطَةٌ مِنْ وَرَائِهِمْ[3]، اَلْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَى دِمَاؤُهُمْ[4]، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ[5] هُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**»[6].

- **الوحدة الإسلاميَّة في السيرة النبويَّة:**

لعلَّ الأصرح في تبيين تأثير الوحدة في بناء الحضارة الإسلاميَّة الأولى هو سيرة النبيّ الأكرم ﷺ العمليَّة وخطواته التي قام بها في صدر الإسلام -خاصَّةً في مرحلة المدينة المنوَّرة- في سياق بناء الجماعة والدولة

(1) أي نعّمه؛ انظر: الجوهريّ، إسماعيل بن حمَّاد: الصحاح، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م، ج2، ص830.

(2) من الغِلِّ وهو الحقد والشحناء، والمعنى أنَّ هذه الخلال الثلاث تُستصلح بها القلوب، فمن تمسَّك بها طهر قلبه من الخيانة والدَّغَل والشّر (انظر: ابن الأثير، محمَّد بن مبارك: النهاية في غريب الحديث والأثر، قمّ المقدَّسة، إسماعيليان، 1367هـ.ش، ج3، ص381).

(3) أيْ إنَّ دعاء جماعة المسلمين يحدق بهم ويحفظهم ويحيطهم من جميع جوانبهم (انظر: الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب؛ المازندراني، محمَّد صالح بن أحمد: الكافي (شرح المازندراني)، طهران، المكتبة الإسلاميَّة، 1382هـ.ش، ج7، ص15-16).

(4) أيْ يتساوون في القصاص والجنايات والدِّيَات؛ فلا تفاوت بين الشريف والوضيع والغني والفقير... (م.ن، ج7، ص15).

(5) المراد بالذمَّة عهد الأمان الذي يجعله بعض المسلمين للعدوّ؛ يعني إذا أعطى أحدٌ من المسلمين -وإن كان أدناهم- للعدوِّ أمانًا لزم على جميع المسلمين ولم يكن لهم أن يخفروه (انظر:

(6) الصدوق، محمَّد بن عليّ بن بابويه القمِّيّ: أمالي الصدوق، بيروت، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، 1400هـ.ق، ص287؛ ومثله:

والحضارة الإسلاميَّة؛ نذكر بعضها على نحو الاختصار:

- بناؤه المسجد فور وصوله إلى المدينة المنوَّرة -بعد بناء مسجد قباء قبل دخوله إليها[1]- بل مشاركته بنفسه في أعمال البناء[2]، وقد كان المسجد مجمعًا للمسلمين في شؤون العبادة، والتعليم، والتبليغ، والسياسة، والتشاور، والقضاء، والمواساة. ومن أهمِّ وظائف هذا المسجد هو تحقيق الاتِّحاد والاجتماع بين المسلمين[3].
- مؤاخاته بين المسلمين في المدينة المنوّرة[4]، وهي فعلٌ توحيديٌّ؛ إذ الغرض منه تحقيق الألفة والانسجام والاتِّحاد بين أطياف المسلمين من المهاجرين والأنصار، والأغنياء والفقراء، والأحرار والموالي، والقرشيِّين وغيرهم... خاصَّةً في تلك الظروف المضطربة، حيث كانت الجماعة الإسلاميَّة ضعيفةً يتربَّصها الأعداء من كلِّ جانب.
- إنهاء الصراع التاريخيّ بين الأوس والخزرج[5]، ويمكن أن يُقال إنَّ النبيّ ﷺ لم يترك فرصةً للإصلاح بين المسلمين إلَّا واغتنمها عملًا بآية ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾[6].
- أمره ﷺ بهدم مسجد ضرار وحرقه؛ ولا يخفى أنَّ تفريق المؤمنين وشقّ عصا المسلمين كان أحدَ أهداف بناء هذا المسجد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[7].
- تشريع صلاة الجماعة والتأكيد على حضورها، بل النهي عن التهاون

(1) ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبويَّة، بيروت، دار المعرفة، لا ت، ج1، ص494.
(2) م.ن، ج1، ص496.
(3) انظر: مرتضى، جعفر: الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، قمّ المقدَّسة، دار الحديث، 1426هـ.ق، ج5، ص88-89.
(4) ابن هشام، السيرة النبويَّة، م.س، ج1، ص505.
(5) مرتضى، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، م.س، ج4، ص120.
(6) سورة الحجرات، الآية 10.
(7) سورة التوبة، الآية 107.

فيها، ولا يخفى أنَّ من أهمِّ أغراض صلاة الجماعة هو تحقيق الاجتماع والاتِّحاد بين المصلّين. عنه ﷺ: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ جَمَاعَةِ اَلْمُسْلِمِينَ وَجَبَ عَلَى اَلْمُسْلِمِينَ غِيبَتُهُ، وَسَقَطَتْ بَيْنَهُمْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَ هِجْرَانُهُ، وَإِذَا رُفِعَ إِلَى إِمَامِ اَلْمُسْلِمِينَ أَنْذَرَهُ وَحَذَّرَهُ، فَإِنْ حَضَرَ جَمَاعَةَ اَلْمُسْلِمِينَ وَإِلاَّ أَحْرَقَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ. وَمَنْ لَزِمَ جَمَاعَتَهُمْ حَرُمَتْ عَلَيْهِمْ غِيبَتُهُ وَثَبَتَتْ عَدَالَتُهُ بَيْنَهُمْ**»[1]. فهل يمكن مع هذا التأكيد قصر صلاة الجماعة على البعد العباديّ من غير أن تكون مقصودةً لهدف اجتماعيٍّ يتناسب مع خصوصيّاتها؟

- تشريع العبادات التي تقوّي روح الوحدة والاجتماع؛ كالحجّ، والخمس، والزكاة، والأمر بالمواساة، وجعل الأعياد بما يقرِّب القلوب ويجمع المسلمين[2].
- نصُّه على الوحدة بوصفه مبدأً إسلاميًّا في الدستور الأوَّل الذي دوَّنه للمسلمين -ويُسمّى أيضًا ميثاق المدينة أو دستور المدينة أو صحيفة المدينة[3]- حيث ورد في مقدّمته على ما نقل ابن هشام: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من محمَّدٍ النبيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريشٍ ويثربَ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنَّهم أمّةٌ واحدةٌ من دون الناس...»[4].

وبمجموع هذه العوامل من القرآن والسُّنَّة النبويَّة ترسَّخت قيمة الوحدة الإسلاميَّة في أنفس المسلمين الأوائل؛ وبذلك نفهم حساسيّتهم

(1) الطوسيّ، تهذيب الأحكام، م.س، ج6، ص241.
(2) انظر: جوادي آملي، عبد الله: جامعه در قرآن، قمّ المقدَّسة، مؤسَّسة إسراء، 1389هـ.ش، ص214-215.
(3) انظر: العيساوي، جاسم محمَّد راشد: الوثيقة النبويَّة والأحكام الشرعيَّة المستفادة منها، الشارقة، مكتبة الصحابة، 1427هـ.ق، ص27-29.
(4) ابن هشام، السيرة النبويَّة، م.س، ج1، ص501.

تجاه موضوع الوحدة وشقِّ عصا المسلمين والخروج عن الجماعة، ورفع ذلك شعارًا في مناسباتٍ مختلفة. وبهذا يتّضح جليًا أنَّ الوحدة الإسلاميَّة لم تكن فرعًا وتفصيلًا في صدر الإسلام، بل كانت ركنًا رئيسًا في عمليَّة بناء الدولة وتأسيس الحضارة الإسلاميَّة على يد الرسول الأكرم ﷺ.

ب. **الوحدة ضمن عوامل انهيار الحضارة الأولى:**

بعد أن اتَّضح دور الوحدة في تشييد تلك الحضارة وتأسيس أركانها، نسأل -الآن- سؤالًا مقابلًا: هل كانت التفرقة والتشتّت عاملًا من عوامل انهيار تلك الحضارة الإسلاميَّة الأولى؟

لا شكَّ أنَّ التفرّق والنزاع الداخليّ هو أحد أهم أسباب زوال الحضارات في تاريخ البشريَّة؛ لذلك يجعل المؤرِّخ أرنولد توينبي في كتابه «دراسة للتاريخ» فقدان الوحدة الاجتماعيَّة أحدَ الأسباب الثلاثة لانهيار الحضارات[1]، كذلك يرى ابن خلدون في مقدّمته أنَّ أوَّل ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها[2].

لم تنهر الحضارة الإسلاميَّة دفعة واحدةً، بل حصل ذلك تدريجيًّا في ما يُعرف بعصر الانحطاط، وقد اشتدّت الأزمات الثقافيَّة والأخلاقيَّة والعسكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة في تلك الفترة، وضعفت الدولة الإسلاميَّة تدريجيًّا، وأنهكها مواجهة الحملات الصليبيَّة في أواخر القرن الخامس للهجرة[3]، إلى أن اجتاح المغول البلاد الإسلاميَّة في أواخر القرن السادس، وسقطت بغداد عاصمة الدولة العبَّاسيَّة في القرن السابع[4]، فأمكن اعتبار ذلك التاريخ نقطةً مفصليَّةً في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة.

(1) توينبي، أرنولد: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمّد شبل، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، 2011م، ج1، ص 413.
(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج1، ص360.
(3) ديورانت، قصّة الحضارة، م.س، ج15، ص18.
(4) زيدان، جرجي: تاريخ التمدُّن الإسلاميّ، بيروت، دار مكتبة الحياة، لا ت، ج4، ص507.

مع ذلك، يمكن أن ندّعي الإجماع على كون التفرقة والتشتُّت بين المسلمين عاملًا رئيسًا في تضعيف تلك الحضارة وتراجعها وانهيارها، بمعنى أنَّ كلَّ من بحث الحضارة الإسلاميَّة تاريخيًّا واجتماعيًّا ذكر التفرقة ضمن عوامل الانهيار الداخليَّة؛ نذكر بعضهم:

- ويل ديورانت في «قِصَّة الحضارة»[1]، يقول ضمن حديثه عن الظروف الداخليَّة إبّان غارة المغول على البلاد الإسلاميَّة: «وكان التعصُّب الدينيّ والعداء العنصريّ قد قسَّما الشعب أقسامًا شديدة التباغض والتنازع، وحالا بينه وبين الاتِّحاد لمقاومة الصليبيِّين»[2].

يقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»[3]: «هذه هي شريعة القرآن، ولم يرغب الغالبون عنها، ولم يؤلِّف الغالبون والمغلوبون في بدء الأمر سوى أمَّةٍ واحدةٍ ذات معتقداتٍ واحدة ومشاعر واحدة ومصالحَ واحدةٍ، وقد سادَ الوِفاق جميعَ نواحي الدولة العربيَّة ما ظلَّ العرب أقوياءَ محترمين في كل مكان. بيد أنَّ منافساتِ هذه الشعوب كانت خامدةً غيرَ هامدة، وقد بدت حينما عاد العرب إلى ما تعوّدوه من الشِّقاق والانقسام، وصارت بلاد الإسلام ميدان خصام دائم بين أحزابٍ لم تترك تنازعها حتَّى حين كان النصارى يحاصرون آخرَ مَعقِلٍ إسلاميٍّ في الأندلس»[4].

جرجي زيدان في «تاريخ التمدن الإسلامي»[5]: «فانقضى القرن السادس للهجرة والمملكة الإسلاميَّة قد تولّاها الضعف والانقسام، ولا سيَّما في المشرق بمن تنازع على سلطته من الأتراك قوّاد السلاجقة ومماليكهم...»[6].

(1) ديورانت، قصَّة الحضارة، م.س، ج13، ص321، 377، 381.
(2) م.ن، ج13، ص377.
(3) لوبون، حضارة العرب، م.س، ص632.
(4) م.ن، ص635.
(5) زيدان، جرجي: تاريخ التمدُّن الإسلاميّ، م.س، ج4، ص506.
(6) م.ن، ص.ن.

- يضرب ابن خلدون -في مقدّمة تاريخه في صدد حديثه عن خطورة الانقسام في الدول والحضارات- مثلًا ما جرى في الدولة الإسلاميَّة العربيَّة حيث كان أمرُها حريزًا مجتمعًا ونطاقًا ممتدًّا في الاتّساع، إلى أن بدأت الانقسامات في الدولة من جهة الأندلس وأفريقيا ومصر الشام[1]...

- وكان الإمام الخمينيّ ﷺ يصرِّح كثيرًا وفي مناسباتٍ مختلفةٍ بضرورة الوحدة الإسلاميَّة وخطورة التفرقة؛ يقول -مثلًا- في تتمّة العبارة التي نقلناها سابقًا في وصف عظمة الحضارة الإسلاميَّة الأولى: «... فلمَّا لاحظ [المستعمرون] أنَّه لا يمكن مع هذه القوّة والاتِّحاد بين البلدان الإسلاميَّة السيطرة على ثرواتهم وذهبهم الأسود والأصفر، فكّروا في طريقٍ للحلّ، وكان الحلُّ في إيجاد الفرقة بين البلاد الإسلاميَّة»[2].

ج. **حيثيَّات التفرُّق والانقسام:**

حصل التفرّق في زمن انحطاط الحضارة الإسلاميَّة الأولى من حيثيَّاتٍ مختلفة:

- **مذهبيَّة:** حيث كثرت المذاهب والفرق[3]؛ ما ساهم في تقسيم الدولة الإسلاميَّة الكبرى، على سبيل المثال استطاع الشيعة في تلك الفترة تأسيس دولٍ عدَّة؛ كالدولة الفاطميَّة في المغرب ومصر[4]، والإدريسيَّة في المغرب[5]، والحمدانيَّة في حلب[6].

- **عرقيَّة:** حيث برزت الخلافات بين الأعراق المختلفة ضمن الدولة

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج1، ص360-362.
(2) الخمينيّ، صحيفة الإمام (الفارسيَّة)، م.س، ج1، ص374.
(3) حتّي، فيليب، تاريخ العرب المطوَّل، لا م، دار الكشّاف، 1950م، ج3، ص517.
(4) زيدان، تاريخ التمدُّن الإسلاميّ، م.س، ج4، ص506.
(5) حتّي، تاريخ العرب المطوَّل، م.س، ج2، ص541.
(6) م.ن، ج2، ص549.

الإسلاميَّة؛ كالفرس، والعرب، والأتراك، والبربر، والأكراد... يُذكر أنَّ بطانة الرشيد كانت حزبين؛ فارسيّ وعربيّ، مرجعهما إلى ابنيه الأمين والمأمون؛ لأنَّ الأوّل أمُّه عربيَّة (زبيدة)، والثاني أمُّه فارسيَّة. وقد اشتدَّ الخلاف في هذه الفترة بين الفرس والعرب؛ إذ كان كلٌّ منهما يحاول الاستئثار بالسلطة، وفي هذه الظروف ظهرت الحركة الشعوبيَّة التي تدعو إلى المساواة بين العرب والعجم بعد أن كان العرب يرون أنفسهم أعلى شأنًا من العجم[1].

- **إقليميَّة:** تمثَّل ذلك في تفكُّك الدولة الإسلاميَّة بحسب الأقاليم والمناطق؛ كما في مصر، والمغرب، والأندلس، وما وراء النهر[2].
- **سياسيَّة:** حيث انقسمت الدولة الواحدة الكبرى إلى دويلاتٍ مختلفة؛ إذ سعى ولاة الأقطار الذين كان ينصبهم الخلفاء إلى الاستقلال والاستئثار بالسلطة وشؤون الحكم كما حصل في مصر والأندلس.

وعلى كلِّ حال، فقد أجمع هؤلاء الباحثون في التاريخ الإسلاميّ وغيرهم على أنَّ التفرقة كانت من جملة أسباب زوال تلك الحضارة الإسلاميَّة الأولى بل من أهمِّها؛ وقد تحقّق بهذه التفرقة الفشل الذي حذَّر منه القرآن الكريم نتيجةً للتنازع ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

2. دور الوحدة في الحضارة الإسلاميَّة الحديثة:

إذا كانت الوحدة عاملًا في تشييد الحضارة الإسلاميَّة الأولى وكانت التفرقة والتشتُّت عاملًا في انهيارها؛ فهل يبقى شكٌّ في ضرورة تحقيق الوحدة بين المسلمين إذا أردنا إعادة إحياء هذه الحضارة؟ خاصَّةً مع

(1) انظر: زيدان، تاريخ التمدُّن الإسلاميّ، م.س، ج4، ص422، 424، 506.
(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م.س، ج1، ص506.
(3) سورة الأنفال، الآية 46.

ملاحظة ما مرَّ في المبادئ التصديقيَّة لهذا البحث وعبَّرنا عنه بقانونيَّة التاريخ؛ إذ ليست الحضارة الإسلاميَّة الأولى حدثًا اتِّفاقيًّا خارجًا عن قواعد العلِّيَّة؛ لذلك أمكن تعميم دخالة الوحدة والاجتماع في تشييد الحضارة وحفظها، فيقال إنَّ أحد أركان الحضارة الإسلاميَّة الحديثة التي نسعى لإقامتها هو الوحدة الإسلاميَّة، واجتماع القلوب والأفكار والأيدي في هذا المسير.

أعتقد أنَّ فهم الوحدة الإسلاميَّة في هذا المعنى يفسِّر الاهتمام الكبير من قبل الإمام الخمينيّ قدس سره والإمام الخامنئي دام ظله بقضيَّة الوحدة الإسلاميَّة وتأكيدهما وإصراراهما عليها، كما أنَّه يحقِّق بوضوح موضوع التقيَّة المداراتيَّة -مقابل الخوفيَّة- التي يقول بها الإمام الخمينيّ قدس سره، وهي التقيَّة التي يُطلب بها تحقيق مصلحةٍ نوعيَّةٍ عامّةٍ مهمَّة ولو من غير خوف الضرر[1]، والحضارة الإسلاميَّة القويَّة الأصيلة من أهمِّ هذه المصالح.

ولذلك كلِّه، إذا كانت الحضارة الإسلاميَّة غايةً لنا باعتبار انتمائنا إلى الإسلام وقضاياه؛ فإنَّه لا يمكن التغاضي عن قيمة الوحدة والاتِّحاد والاجتماع، ولا يجوز التقصير في طريق تحقيقها فعلًا في العالم الإسلاميّ، يقول الإمام الخامنئي دام ظله: «كلُّ الشعوب تتحمّل مسؤوليَّة الوصول إلى تحقيق هذا الهدف، على العالم الإسلاميّ أن يزيل عوامل التفرقة، وحدة علماء الدّين قادرةٌ على أن تكتشف أسلوب الحياة الإسلاميَّة الجديدة، وتعاون جامعاتنا من شأنه أن يرتقي بالعلم والتقانة، وبذلك تستطيع أن تضع أساس الحضارة الجديدة»[2].

وفي سياق التأكيد على لزوم العمل الجادّ لتحقيق الوحدة الإسلاميَّة، ننقل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في كتابٍ له إلى أبي موسى الأشعري يقرِّعه

(1) الخميني، روح الله: الرسائل العشرة، طهران، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيّ قدس سره، 1378هـ.ش، ص7، 71.

(2) الخامنئيّ، عليّ: خطبة صلاة الجمعة العربيَّة بعد شهادة الحاجّ قاسم سليماني، 27-10-1398هـ.ش.

فيه؛ يقول عليه السلام: «ليس رجلٌ -فاعلم- أحرصَ على جماعة أمَّة محمَّد صلى الله عليه وآله وأُلفتها مني، أبتغي بذلك حسن الثواب، وكرم المآب، وسأفي بالذي وأيت[1] على نفسي»[2]. وليس أحدٌ أحقَّ باتّباع نهج أمير المؤمنين عليه السلام في حرصه على وحدة المسلمين واجتماعهم من شيعته ومواليه ومن ينتسب إليه في قوله وفعله.

(1) الوأي: الوعد الذي يوثِّقه الرجل على نفسه، ويعزم على الوفاء به (انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، م.س، ج5، ص144).

(2) الشريف الرضي، محمَّد بن الحسين: نهج البلاغة (الجامع لخطب ورسائل وكلمات أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام)، قمّ المقدَّسة، مؤسَّسة الرافد للمطبوعات، 1431هـ.ق، ص623.

خاتمة:

كان السعي في هذا البحث لإثبات أهمِّيَّة الوحدة الإسلاميَّة، باعتبارها أحد أركان تشييد الحضارة الإسلاميَّة الحديثة؛ وذلك بالاستفادة من منهج التحليل التاريخيّ لنموذجٍ من هذه الحضارة. يمكن تلخيص نتائج هذا البحث في الآتي:

1. المقصود من الحضارة هو مجموعة العوامل المادِّيَّة والمعنويَّة التي تبتدعها الجماعة البشريَّة للتوصّل إلى تحقيق الرفاه والسعادة.
2. تنبثق الحضارة الإسلاميَّة من روح الإسلام وتعاليمه وعقائده وأخلاقه، بما يحافظ على أصالتها الدينيَّة.
3. الوحدة الإسلامية هي اجتماع قلوب المسلمين وأفكارهم وأيديهم للتوصّل إلى الأهداف والمصالح المشتركة والمطلوبة.
4. استطاع المسلمون في القرون الأولى بعد الهجرة تأسيس نموذجٍ من الحضارة استمرَّت وتألَّقت لقرونٍ خمسةٍ تقريبًا.
5. على الرغم من المفاسد والانحرافات التي طالت هذه الحضارة، لكنَّها تحمل الهويَّة الإسلاميَّة الأصيلة، وبالتالي يمكن أن يُستفاد منها بوصفها تجربةً في سبيل بناء الحضارة الحديثة.
6. كان للوحدة الإسلاميَّة دورٌ مهمٌّ ضمن عوامل تشييد الحضارة الأولى، تجلّى ذلك في تأكيد القرآن والرسول الأكرم ﷺ -قولًا وفعلًا- على تحقيق الوحدة في مرحلة التأسيس.
7. في المقابل كانت التفرقة عاملًا رئيسًا من عوامل انحطاط الحضارة الأولى وانهيارها.
8. لا بدَّ من السعي لتحقيق الوحدة الإسلاميَّة فعلًا بوصفها مقدّمةً ضروريَّةً لبناء الحضارة الإسلاميَّة الحديثة.